الطبيعة في شعر الشابيّ :

تجربة الشابي في الطبيعة لا تعدّ ولا تُحصى ذلك لتعددها واتساعها وانحنائه فيها على الصغيرة والكبيرة ومن مزجها بتجربة الحب والحرية والتكامل الروحي فيما وراء الوجود .

وليس في شعر الشابي قصيدة واحدة تغيب عن مظاهر الطبيعة وعناصرها ، ولعله أوشك أن يستنفذ موضوع الطبيعة ويأتي عليه بذاته وبما إليه ، فالشاعر في قصيدته "بقايا الخريف" يهيل التشابيه والاحتمالات على الخريف حيثُ يجد الفضاء وكأنه شاعر حالم والزهور مكفنة والغدير مواتاً والزهرة التي قضت والتي يرثيها أفجع الرثاء وكأنه يرثي فيها زهرة العمر والحياة بل إنها زهرة آماله الرومانسية التي تكاد لا تزهر وتشب حتى تحني أعناقها للزوال .

يقول في قصيدته **"بقايا الخريف"** : [١]

فسرتُ إلى حيثُ تأوي أغَانِي

الرَّبيعِ وتذوي[٢] أماني الخريف

وحيثُ الفَضَا شاعرٌ حالمٌ

يناجي السُّهولَ بوحي طريف

وقدْ دثَّرتْهُ غيومُ المساءِ

بطلٍّ حزينٍ ضريحٍ شفيف

وقفتُ وحولي غديرٌ مواتٌ

تمادَتْ به غفواتُ الكُهوف

قضتْ في حَفَا فِيهِ تِلْكَ الزُّهورِ

فَكفَّنَهَا بالصَّقِيعِ الخَريف

---

[١] ديوان ٧٢ ص ١٧١

[٢] تذوي : تذبل

سِوى زهرةٍ شقيتْ بالحياةِ

وملبثُهـــا بالمقـــامِ المُخيـــف

ثمَّ يمضي إلى أن يقول :

ذكرتُ بمضجعها المطمئـــن ومرقدها في السفير الجفيف

مصارعَ آمالـي الغـــابـــرات وخيبتها في الصراع العنيف

فقلَّبتُ طرفي بمهوى الزهور وصعّدْته في الفضاء الأسيف

وقلتُ :"هو الكونُ مهدُ الجمال ولكن لكلِّ جمالٌ خريف..!"

ولا يعتم على الشاعر أن يسمع قصف الرَّعد و ها إنه يترجم صوته ويحس أنه لا يقصف وإنما هو أشبه بروح معذبة تئن وتعول في قمم جسدها بل إنه ربما كان صوت الحق الذي يتمادى في عنفه ليسكت صوت الظلم . تلك احتمالات طرأت على ذهن الشاعر تحت وقع الرعد ولكن هذه التساؤلات ظلت في السّدى لم

يسمع عنها جواباً فالنهار والليل لم يجيبا والليل ظل مطبقاً مثل غدير الفقر .

يقول في قصيدته **"أنشودة الرَّعد"** : [١]

في سُكُـــونِ اللَّيـــــلِ لمّـــا عانـــقَ الكـــونَ الخُشُـوعْ
وَاخْتَفَى صَـوْتُ الأَمَـــانِي خَـلْـفَ آفَـــاقِ الهُجُـوعْ
رَتَّـــلَ الـرَّعْـدُ نَشِـيـــداً رَدَّدَتْـــهُ الـكَـائِـنَـاتْ
مِثْلَ صَوْتِ الحَقِّ إنْ صَـاحَ بِـأَعْـمَـاقِ الـحَـيَـــاة
يتـــهَـــادى بـضَجيـجٍ في خـــلاَيـا الأَوْدِيَـــة
مِثلَ جبَّـارِ بَنِـــي الجِـــنِّ بـــأَقْـصَـــى الـهَـاوِيَـه
فَسَـأَلـــتُ اللَّيْـــلَ واللَّيْـلُ كـــئـيـبٌ ورَهِـيـــبْ
شَاخِصًا بالليْـــلِ واللَّيْـلُ جـمـيـــلٌ وغَـرِيـبْ
أتُـرى أُنشُـودَةُ الرَّعْـــدِ أَنِـيـــنٌ وَحَنِـيـــنْ
رَنَّـمَـتْـهَـا بـخُـشُـوعٍ مُهْجةُ الكَونِ الحَزِيـــنْ

---

١ ديوان ٧٢ ص ٧٩ .

أَمْ هِيَ القُــوَّةُ تَسْــعَى بِاعْتِسَــافٍ واصْطِخَابْ
يَــتَــــرَآى فِي ثَــنَـايَــا صَوْتِهَـا رُوحُ العَــذَابْ؟
غَيرَ أنَّ اللّيْلَ قــدْ ظَـــلَّ ركُـــودًا ، جَـــامِدًا
صَامِتًا مِثْلَ غديرِ الفقــرِ مِــنْ دُونِ صـــدَى!

وحين يرنو الشاعر إلى الليل فإن اللغز ذاته يبين له كما بدا في الخريف والرعد. ماذا يكون الليل؟ إنه إله رؤوف ربُّ العرائس، وقد يكون إله الرعب والرهبة، وفي حين يخَيَّل إليه أنَّه والدٌ رحيم يضم الطبيعة بين أحضانه ويتعطف عليها بل إنَّه يولجها إلى ذاته ويذوب فيه.

وللمساء وقعة في شعر الشابي وهو مثار للأحلام والكآبة ، وفيه معنى الأوبة والنهاية مع التعب والكفاح في ساح النَّهار . كلُّ شيء يؤوب في المساء ، إلا أمل الشاعر فإنه ولّى ولا عودة له . والأمل ذاك ليس أملاً بلقاء وإنما هو أملٌ خاص لإنسان كلّي ، أمل العثور على يقينه وعلى حريته وعلى كُليته ، أمل العثور على نفسه

وفهم ذاته . وهذه الكآبة تفيض من غربة النفس ووحاشة العالم وامتناع الحقيقة .

يقول الشابي في قصيدته " **أيها الليل** " : [١]

أيُّهَا الليلُ يا أَبَا البؤسِ والهَـوْ
لِ ياهيكـلَ الحَيـــاةِ الرَّهيبِ !
فِيكَ تَجْثُو عرائسُ الأَمَلِ العَذْ
بِ ، تُصـلَـّي بصَوتِهـا المحبـوبَ
فَيُثِيــرُ النَّشِيــدُ ذِكْــرَى حيـاةٍ
حَجَبَتْهَــا غُيــومُ دَهْــرٍ كَئيـبِ

ويمضي في قوله إلى :

فَـلَــكَ اللهُ مِــنْ فــؤادٍ رَحيـمٍ
ولكَ الله مـن فــؤادٍ كـئيــب

---

[١] ديوان ٧٢ ص ١٣٧ .

يهجعُ الكـونُ ، في طمأنينةِ العُصـ

ـفور ، طِفـــلاً، بصدركَ الغَـريب

وبأحضـانكَ الرحيمـةِ يستيقـظُ فـي

نـضـــــرةِ الضَّحُــوكِ الطَّــرُوبِ

* * * * *

إنَّ وادِي الظَّـــلامِ يَطْـفَــحُ بـالهَــوْ

لِ ، فـمـا أبعـدَ ابتسـام القلــوبِ!

قَدْ سَـألتُ الحياةَ عَنْ نغمـةِ الفَجْــ

ـرِ، وَعَنْ وَجْمة المســاءِ القَطُــوبِ

فسمعتُ الحياةَ ، في هيكلِ الأحـزا

نِ، تشــدُو بِلَـحْـنِـهـا المَـحْـبُـوبِ

مَـا سُـكـونُ السَّمـــاءِ إلا وُجُـــومٌ

مَا نشيــدُ الصَّبَــاحِ غيــرُ نحيـبِ

لَيْـسَ في الدَّهْــرِ طَـائـرٌ يـتـغـنَّـــى

فـي ضِفَــافِ الحيـاةِ غَيْـرَ كَئيــبِ

* * * * *

جرفتْ من قرارةِ القلبِ أحْـــلا
مـي إلى اللَّحْدِ، جَائِراتُ الخُطُوبِ
فَتَلاشَـــتْ عَلَى تُخُـومِ الليـالـي
وتهاوتْ إلى الجَحِيم الغَضُـــوبِ
وثـوى في دُجُـنَّـةِ النَّفسِ ومـضٌ
لـم يـزلْ بيـن جيئَـةٍ وذُهـــوبِ
ذكرياتٌ تميسُ [١] في ظلمةِ النَّفْـسِ
ضِئالاً ، كرائعـــاتِ المَشيـــبِ
يَا لِقَلْبٍ تَجَـــرّعَ اللَّوعـــةَ المُـــرَّ
ةَ منْ جدولِ الزَّمـــانِ الرَّهيـبِ!
وَمَضَتْ في صَمِيمِهِ شُعْلَـةُ الحُـــزْ
نِ ، فَعَشَّتْـــهُ مِنْ شُمـــاعِ اللَّهيـبِ

---

١ تميس : تتبختر .

وهكذا كان الشابي يحاول أن يستبطن مظاهر الوجود وأن يهبها عقلاً ونفساً ومعاناة دون أن يفلح في أن ينتظم عظمة الكون في سلك واحدٍ . ويلوي عن ذلك على كآبة وجودية روحية من عجز الإنسان عن فض لغز الكون ولغز النفس. فالرَّعد هو كسائر مظاهر الطبيعة يحمل رسالة إلى الإنسان إلا أنَّ الإنسان في كثافة المادية ومنطقيته وحواسه العمياء ، بات عاجزاً عن تفهُّم ظاهره وفض الرسالات التي يبعثها إليه .

ففي نظرة الشابي إلى الطبيعة شيء من الثورة على الحقيقة الفعلية ، فالطبيعة تستعجم على الإنسان لأن الإنسان مستعجم عن ذاته بماديته وأنانيته ومنطقيته .